المنهج التداولي

المنهج التداولي هو منهج تحليلي يهدف إلى فهم وتفسير الأعمال الأدبية من خلال التركيز على التفاعل بين النص والقارئ. يعتمد هذا المنهج على الفكرة التي تفترض أن المعنى لا يكتسبه النص بشكل ثابت، بل يتغير تبعًا لتفاعل القارئ معه. يقوم المنهج التداولي على استكشاف التأثيرات المختلفة التي يمكن أن تمارسها الأعمال الأدبية على القراء وتفسيراتهم المحتملة. وبهذا يقدم المنهج التداولي نظرة متعددة الأبعاد للنص ويعزز فهمنا الشامل للأعمال الأدبية.

-التداولية المصطلح والمفهوم: التداولية *من* الفعل تداول والذي يعني من بين ما يعنيه تبادل، تشارك ، أما من الناحية الاصطلاحية فالتداولية علم حديث مرتبط بالظاهرة اللسانية وهو المقابل العربي للمصطلح الفرنسيpragmatique وتوجد بالإضافة إلى مصطلح تداولية ترجمات عربية أخرى " التبادلية ، الاتصالية ، النفعية ، الذرائعية"(1) لكن المقابل الشائع هو "تداولية". والواقع أن تحديد التداولية في إطار مفهومي واضح المعالم هو أمر صعب نوعا ما. يقول دومينيك منقونو:" إنه من الصعب الحديث عن التداولية لأن هذا التعبير يغطيه العديد من التيارات من علوم مختلفة، تتقاسم عددا من الأفكار، واللسانيون ليسوا وحدهم المعنيين بالتداولية، بل تعني الكثير من علماء الاجتماع إلى المناطقة، وتتجاوز اهتماماتها بمجموع الأبحاث المتعلقة بالمعنى والتواصل، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني"(2) ومن هنا تباين تعريف التداولية حسب حقل الاشتغال. وعلى العموم فهذه الأخيرة في الاصطلاح المعاصر "هي دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأنها تشير إلى أن المعنى ليس شيئا متصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا المتلقي وحده فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والمتلقي في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما"(3) إنها العلم الذي يعني باللغة وبالمعنى في إطار فعل التواصل وكل ما يتصل بتلك العملية من علامات ومقامات.

رواد التداولية: يعد شارل ساندرس بيرسبمقاله "كيف نجعل أفكارنا واضحة" من أول رواد التداولية ، غير أن المنظر الفعلي لها كان جون أوستن.

مقولات التداولية:

- يرتبط مصطلح تداولية في اللسانيات بنظرية أفعال الكلام منذ أن أكد أوستين أن " أقول هي أفعل" لأنني عندما أتكلم فأنا أصنع ملفوظا يترجم نية و كلامي ينتج تبعا لذلك رد فعل أو ردود أفعال. إن التداولية هي "بحث كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم، أو دراسة معنى المتكلم، فقول القائل "أنا

عطشان تعني: "أحضر لي كوبا من الماء وليس من اللازم أن يكون إخبارا له بأنه عطشان، فالمتكلم كثيرا ما يعني أكثر مما تقوله كلماته" (4)

–التداولية هي إذن – عند بعضهم– فرع اللسانيات الذي يدرس "اللغة من زاوية علاقة العلامات بمستعمليها" و هي لذلك لها علاقة وطيدة بعلم الدلالة لأن هذا الأخير معني بدلالات الدوال . و بما أن المتكلمين – في كل ملفوظ تبادلي شفويا كان أو كتابيا– يستعملون الدوال استعمالات مختلفة فإن مفهوم السياق يتخذ أهمية خاصة جدا في المنظور التداولي. و السياق نوعان السياق الخارجي contexte و السياق النصي cotexte

– ترتبط التداولية بعدة حقول و لهذا نجد لها عدة اتجاهات "تداولية تلفظية ، تداولية نفسية –اجتماعية ، تداولية نصية ، تداولية سوسيولغوية... و من هنا تدرس المقاربة التداولية الإشاريات و المقصدية و أفعال الكلام و الوظيفة و السياق و الإحالة المرجعية و الحجاج اللغوي و الإقناع و الحوارية "(5)

–من الناحية التاريخية يمكن القول أن نظرية وليام جيمس (1842–1910) في البراغماتية و التي ربطت قيمة الأفكار بمدى نفعها شكلت المهاد النظري للمقاربات التداولية . يقول وليام جيمس " إن حقيقة فكرة ما ليست خاصية متضمنة فيها ، و تبقى غير فاعلة . الحقيقة هي حدث يتم إنتاجه لصالح فكرة ما و تصير هذه الأخيرة حقيقة بفضل بعض الوقائع. إنها تكسب حقيقتها من خلال العمل الذي تنجزه" (6) كما يعود الفضل في التأسيس لمصطلح براغماتية إلى "شارل ساندرس بيرس" هو أول من ابتكر كلمة "البراجماتية"، وذلك في مقالته الشهيرة"كيف نجعل أفكارنا واضحة ؟" و إلى "شارل موريس" الذي كان سباقا إلى تعريف التداولية بما هي دراسة علاقة العلامات بمستعمليها ، أي دراسة اللغة أثناء ممارستها إحدى وظائفها الإنجازية والحوارية والتواصلية . وقد عدّها جزءا من السيميائيات ، وذلك لمّا أقرّ بأن للسيميائيات ثلاثة فروع هي :

. التركيب النحوي : ويُعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات .

. الدلالة وهي دراسة علاقات العلامات فيما بينها وبين الأشياء ، أي ارتباطها بالمعنى .

. التداولية : وهي دراسة ارتباط العلامات بمؤوليها أي بمستعمليها"

غير أن تبلور التداولية كنظرية نقدية و كمنهج في التحليل كان في السبعينيات من القرن الماضي و بدايات الثمانينيات على يد عديد الباحثين مثل جون أوستين و تلميذه جون سيرل و فرانسواز أرمينكو

(المقاربة التداولية ترجمة سعيد علوش) و بول غرايس و المغربي أحمد المتوكل صاحب كتاب (الوظائف التداولية في اللغة العربية 1985) و غيرهم.(7)

القراءة التداولية للنص الأدبي:

1-النص الأدبي خطاب أي ملفوظ لغوي يتصف بالانسجام العضوي و يحمل وظائف و مقاصد سياقية بعضها مباشر و بعضها الآخر غير مباشر.

2-النص الأدبي فعل تواصلي إذ تنطوي اللغة على ثلاث وظائف تمثيلية (تمثيل الذات و الآخر) و تعالقية (اتخاذ المخاطب دور من الأدوار مخبر ، سائل ، آمر) و وظيفة نصية (تنظيم الخطاب حسب مقتضيات مقام إنجازه) و هذه تتضافر لتحقق فعل التواصل.

3-النص الأدبي تبادل و تخاطب: و يتعلق الأمر هنا بمرور الخطاب من الباث إلى المتلقي ، و إذا كان الخطاب اليومي لا يطرح إشكالا على هذا الصعيد ، فالخطاب الأدبي و بسبب انزياحاته و تلميحاته يكون غامضا و يحتمل التأويل دائما ...و ينبني التخاطب براي بول غرايس على مبدأ التعاون الذي يقوم بدوره على أربعة مبادئ (مبدأ الكم أي التكلم على قدر الحاجة و تفادي الاطناب)، مبدأ الكيف لاتقل ما تعتقد كذبه و تخونك الحجة فيه) ، و مبدأ العلاقة أي مراعاة السياق ، و مبدأ الطريقة أو الأسلوب حيث الإلحاح على الوضوح و تجنب الطرق الغامضة في القول .

4- النص الأدبي تلفظ في سياق :يقرأ النص في هذا المستوى في ضوء سياق التلفظ (سياق التواصل الذي يتكون من سياقات فرعية : السياق الشخوصي ، و المكاني و الزماني...) و أطراف التواصل اللغوي و في ضوء القرائن الإشارية (ضمائر الشخوص ،أسماء الإشارة ، ظرف الزمان و المكان ...) و يتم التركيز على البنية و الدلالة و الوظيفة.

5- النص الأدبي أفعال كلامية: و من هذه الزاوية النص الأدبي ليس مجرد ناقل لخبر أو رسالة بل هو أفعال كلامية تهدف إلى تغيير وضع المتلقي و أفكاره و معتقداته ،بل و سلوكه أيضا ، و قد قسمت أفعال الكلام حسب غرضها الإنجازي إلى : التقريريات ، الطلبيات أو الأمريات ،البوحيات ، الوعديات...

5- النص الأدبي مقصدية : و قد نظّر للمقصدية أولا بشكل ميكانيكي بمكا هي متعلقة فقط بمرسل الخطاب المالك لزمام السلطة في نصه ، لكن سرعات ما طُور مفهوم المقصدية في التداولية في شقين

مقصدية المرسل و مقصدية المتلقي الذي يجتهد بعد تعرفه على سياقات المرسل في فهم مقاصده و تأويلها.

6- النص الأدبي بنية تفاعلية: فإذا كانت النظرية الإبلاغية تهدف إلى نقل المعلومات فإن النظرية التفاعلية تهدف إلى توطيد العلاقات الاجتماعية بين الطرفين المتحاورين . و في هذا الصدد يقول محمد خطابي: " يقصد بالوظيفة التفاعلية قيام شكل من أشكال التفاعل اللغوي بين فردين أو بين مجموع أفراد عشيرة لغوية. على أن هذه الوظيفة الثانية تكتسي صبغة خاصة باعتبار أنه لا يُهدف من ورائها إلى نقل معلومات و إنما إلى تأسيس و تعزيز العلاقات الاجتماعية و الحفاظ عليها . إضافة إلى ذلك فهي تعبر عن هذه العلاقات الاجتماعية و الآراء و المواقف الشخصية و التأثيرات المرغوب في إحداثها في العقيدة أو الرأي أو ما شابه ذلك . فمن الطبيعي إذن أن يهتم بهذه الوظيفة علماء الاجتماع و علماء الاجتماع اللغوي و دارسو التخاطب و أضرابهم "(8)

7-النص الأدبي بنية حجاجية:الحجاج استراتيجية تداولية الغرض منها إقناع المخاطب و التأثير عليه (أزوالد ديكرو : السلالم الحجاجية) و يمكن دراسة مسار الحجاج " انطلاقا من قول الحجة إلى نتيجتها ، مع تبيان طريقة التلازم و التعاقد و سلم التفاضل بين الحجج من حيث القوة و الضعف و الكم والكيف ..إلخ" كما يذهب إلى ذلك جميل حمداوي.

8-النص الأدبي حوارية.

9 النص الأدبي سياق: لقد أخفقت البنيوية في قراءة النص بمعزل عن السياق، و حاولت التداولية تدارك الأمر فأولت العناية الكاملة للسياق ف "محلل النص و مؤوله عليه أن يراعي مجموعة من العناصر المهمة في عملية التداول هي : المتكلم ، المخاطب ، و السياق الذي تبلور فيه النص بمعرفة الزمان و المكان و قد يؤدي القول الذي قيل في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين . و يعني هذا أن السياق يتحكم في بنية التأويل الخطابي

-انتقل الاهتمام بالتداولية إلى الوطن العربي ووجدت لها صدى واسعا ، ونشير في هذا السياق إلى محمد مفتاح (سيمياء الشعر القديم ، تحليل الخطاب الشعري)، و أحمد المتوكل ،و محمد خطابي (لسانيات النص) و عبد الهادي بن ظافر الشهري (استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية)

هوامش المحاضرة: